

الباب الثالث

مذاهبه وآراؤه

لو تجوزتُ في تفسير الفلسفة كما يتجاوز الكتاب في وقتنا لجعلت عنوان هذا الباب «فلسفة أبي الطيب»، ولكن الفلسفة في حقيقتها نظرات شاملة نافذة تنتج آراء في العالم أو الحياة أو الأخلاق يقوم عليها نظام من الفكر متصل متماسك. فالآراء المنشورة التي تلقى القارئ في ثنايا شعر شاعر أو نثر كاتب، ليست حقيقةً أن تسمى فلسفة.

ولأبي الطيب آراء منها ما يُذكر في شعره مرة أو مرتين كما يقع في شعر غيره، ومنها ما يتكرر في صور شتى تنبه القارئ إلى أن وراء هذه الصور المكررة فكرة غالبية ورأيًا متمكنًا في نفس الشاعر. وهذا هو الذي يعدّ رأيًا للشاعر، وصورة من صور عقله أو قلبه، وبه يمتاز شاعر عن شاعر ويقال: مذهب فلان، ومذهب فلان.

وسأعرض على القارئ في هذا الفصل جملة من آراء أبي الطيب ومذاهبه التقطتها من شعره ورتبتها.

١- آراء أبي الطيب إنسانية ترجع إلى حياة الإنسان، وأخلاقه وعواطفه، وعلاقته بالجماعة التي يعيش فيها. قلما يتعرض شاعرنا لفلسفة العالم مبدئه ومنتهاه كأبي العلاء المعري؛ ولكن فكره يجد مضطربًا واسعًا في الناس بنين الحياة والموت، والقوة والضعف، واللذة والألم، والنيل والحرمان، ... وهلمَّ جزًا.

٢- يكثر كلام الشاعر عن فناء الحياة وتقلبها وزوال نعيمها. وقد يغلبه الفكر في هذا فينطق به في أثناء المدح أو الغزل كما رأيت في الكلام على أخلاقه. يقول:

نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال

هَوْنٌ على بصر ما شقَّ منظره فإنما يقظات العين كالحلم

لو فكّر الإنسان في منتهى حسن الذي يسيه لم يسيه

لم يُرَ قرن الشمس في شرقه فشكت الأنفس في غربه

وما الدهر أهل أن يؤمل عنده حياة وأن يُشتاق فيه إلى النسل

مُشِبِّ الذي يبكي الشباب مُشيئه فكيف توقّيه وبانيه هادمه

نحن بنو الموتى فما بالناس نعان ما لا بدّ من شره

٣- والناس يسرون في الحياة أفواجًا إثر أفواج بين الميلاد والموت:

على ذا مضى الناس، اجتماع وفرقة وميت ومولود، وقالٍ وواق

سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها مُنعنا بها من جيئة وذهوب

تملكها الآتي تملك سالب وفارقها الماضي فراق سليب

يدفن بعضنا بعضاً ويمشي أواخرنا على هام الأوالي

٤- وهذه الحياة، على قصرها واضطرابها وأوصابها وآلامها، محبوبة يكلف كل إنسان بها ويتقاتل الناس عليها:

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهماً بها صَبَاً
فحبّ الجبان النفس أورده التقى وحبّ الشجاع النفس أورده الحربا
ولذيذ الحياة أنفُسُ في النفس وأشهى من أن يملّ وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما ملّ حياة وإنما الضعف مَلاً

٥- وينبغي للإنسان ألا يجزع من الموت فهو حادث طبيعي:

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بدّ من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هسنّ من كسبه
فهذه الأرواح من جوّه وهذه الأجسام من تربه

إلف هذا الهواء أوقع في الأنف حس أن الحمام مُرّ المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق

وغيابة المفرط في سلمه كغاية المفرط في حربه
فلا قضى حاجته طالب فؤاده يخفق من رعبه

٦- والعيش جهاد مستمر. وغلاب بين الناس لا هوادة فيه ولا رحمة:

دون الحلاوة في الزمان مرارة لا تُختطي إلا على أهواله

إنما أنفَسَ الأنيس سِباع
من أطاق التماس شيء غلابا
كل غاد لحاجة يتمنى
أن يكون الغضنفر الرئبالا
يتفارسن جهرة واغتيالا
واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

والناس لا تكفيهم مصائب الزمان الطبيعية بل يزدون عليها مصائب
بأيديهم.

لا يألون في التنازع والاحترا ب. وليس على الأرض ما يستحق هذا
التعادي والتقاتل؛ ولكن الرجل الأبي لا بد له أن يدفع عن نفسه العدوان
والهوان:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وتولوا بغصة كلهم منه
ربما تحسن الصنيع لياليه
وكانا لم ير ض فينا برب الدهر
كلما أنبت الزمان قناة
ومراد النفوس أصغر من أن
غير أن الفتى يلاقى المنايا
ولو أن الحياة تبقى لحى
وإذا لم يكن من الموت بد
كل ما لم يكن، من الصعب في الآن
وعناهم من أمره ما عانا
وإن سرّ بعضهم أحيانا
ولكن تُكدر الإحسانا
حتى أعانه من أعانا
رغب المرء في القناة سنانا
نتعادي فيه وأن نتفانى
كالحات ولا يلاقى الهوانا
لعدونا أضلنا الشجعانا
فمن العجز أن تكون جبانا
فس، سهل فيها إذا هو كانا

٧- والناس ظالمون بطبعهم مخادعون، لا عهد لهم ولا خير فيهم
فليسوا أهلاً للرحمة:

إذا ما الناس جرّهم ليب
فلاني قد أكلتهم وذاقا

فلم أرد وذهم إلا خندا
ولم أر دينهم إلا نفاقا

ومن عرف الأيام معرفتي بها
فليس بمرحوم إذا ظفروا به
وبالناس روى رمحه غير راحم
ولا في الردى الجاري عليهم بأثم

ولما صار ود الناس خبأ
وصرت أشك فيمن أصطفيه
جزيت على ابتسام بابتسام
لعلمي أنه بعض الأنام

ولا تشك إلى خلق قشمته
وكن على حذر للناس تستره
شكوى الجريح إلى العقبان والرخم
ولا يغرك منهم ثغر مبسم

وأما ذمه أهل زمانه خاصة فملء شعره في عهد الأول، قبل مصاحبة
سيف الدولة. وقد تقدم منه أمثلة^(١).

٨- والإنسان كريم ولئيم بخلقته، لا يستطيع عنها حولا:

وإذا الحلم لم يكن في طباع
لم يحلّم تقدّم الميلاد

وأسرع مفعول فعلت تغيراً
تكلّف شيء فني طباعك ضده

فقلمما يلوم في ثوبه
من وجد المذهب عن قدره
إلا الذي يلوم في غزسه
لم يجد المذهب عن نفسه

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

٩- الحياة والعيش والناس في نظره كما وصف. فماذا يفعل الرجل اللبيب؟ أيفر على الزهد، ويخلص من مصائب الحياة، وآلام العيش، ومكائد الناس بأن يتجنب الزحام، ويفر من المعترك؟ أيتأسى بأبي العلاء المعري؟ أم يتناسى الهموم والآلام باللهو والمرح وتسليط الخمر على العقل، ويتخذ لنفسه قدوة في أبي نواس، ويجعل هجيره ربايعات الخيام؟

هنا تظهر نفس أبي الطيب قوية؛ يجب أن تلبس الحياة على علاقتها، ويجب أن يأخذ كل حي نصيبه من العراك، وحظه من الجهاد. فمن نكص فهو جبان ليس له إلا الذلة والاستكانة والحرمان:

عجبت لمن له قدّ وحدّ وينبو نبوة القضم الكهام
ومن يجد السيل إلى المعالي فلا يندر المطي بلا سنام
ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

وهذه الأبيات مثل لكل نفس عظيمة، وكل أمة إلى المعالي طامحة، وفيها حكمة يزيدها النظر وضوحاً، وتملاً الناظر إعجاباً بهذا الشاعر الطموح، الداعي إلى الكمال الذي يرى أعظم العيوب أن يرضى الإنسان بالنقص، ويقعد دون الغاية. وانظر النفس العظيمة في هذه الأبيات:

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبتي ماله مدى يتهى بي في مُراد أحده
يرى جسمه يكسى شفوفاً تزّبه فيختار أن يكسى دروعاً تهذه
تهوى بمنجرد ليست مذهبته للبس ثوب ومأكول ومشروب

يرى النجوم بعيني من يحاولها
كانها سلب في عين مسلوب
ثم تأمل في قوله:

لا يدرك المجد إلا سيّد بطل
لما يشق على السادات فَعَال
لا وارث جهلت يمناه ما كسبت
ولا كسوب بغير السيف سال

ومن يك قلب كقلبي له
يشق إلى العز قلب التوى
ولا بد للقلب من آلة
ورأى يصدّع ضم الصفا

فزيني أنل ما لا ينال من العلى
فصعب العلى في الصعب، والسهل في
تريدن لقيان المعالي رخيصة
ولا بدّ دون الشهد من إير النحل

وهذه الأبيات من شعره في الكهولة. وأما شعر الشباب فقد بلغ فيه حد
التهور والطيش والثورة، يريد الدنيا ثورة وطعانا وضرابا. وحسب القارئ
أن يرجع إلى القصيدة:

فؤاد ما تسليه المدام
وعمر مثل ما يهيب اللثام

والقصيدة:

لا افتخار إلا لمن لا يضام
مدرك أو محارب لا ينام

ليرى كيف تكون الدعوة إلى عزّة النفس وعلوّ الهمة، والإقدام
والمخاطرة.

١٠ - تدينه:

ذكر ابنُ القارح في رسالته إلى المعري أبا الطيب وتحقيره أهل زمانه،
ونقل خُرافة حبسه في بغداد بدعواه النبوة. وذكر قوله لسيف الدولة:
وتغضبون على من نال رِفدكم حتى ينفِصه التكديرُ والمِنن
ثم قال:

«وهذا غير قادح في طلاوة شعره، ورونق ديباجته؛ ولكني أغتاظ على
الزنادقة والملحدين الذين يتلاعبون بالدين، ويرومون إدخال الشبه
والشكوك على المسلمين، ويستعذبون القدح في نبوة النبيين ... الخ».

فأجابه أبو العلاء في رسالة الغفران إلى أن قال: «وقد دلت أشياء في
ديوانه (أبي الطيب) أنه كان متألهاً فمن ذلك قوله:

* ولا قابلاً إلا لخالقه حكماً *

ما أقدر الله أن يُخزى بريته ولا يصدق قوماً في الذي زعموا

وإذا رُجع إلى الحقائق فنُطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان. لأن
العالم مجبول على الكذب والنفاق، ويحتمل أن يُظهر الرجل بالقول
تدينًا؛ وإنما يريد أن يصل به إلى ثناء أو غرض. ولعله قد ذهب جماعة
هم في الظاهر متعبدون وفي الباطن ملحدون ... الخ».

ليت شعري أكان قول ابن القارح عن أبي الطيب حديثاً شائعاً في زمانه، أم هي دعوى النبوة صدّق بها الرجل فأدخل الشاعر في زمرة الزنادقة؟

إن ما حكاه ابن القارح عن حبس أبي الطيب ببغداد، وأنه كشف عن سلعة في بطنه، وقال: هذا طابع نبوتي وعلامة رسالتي ... الخ - يدل على أنه كان عامياً في تصديق ما يروى دون تثبت ولا نقد، وقد ظن كما ظن غيره أن أبا الطيب تنبأ. وحسب الرجل زندقة أن يتنبأ، وليتهم حين صدقوا قصة النبوة قالوا إنها كانت دعوى حدث في سن العشرين لا تقاس بها عقيدته طول عمره.

والخلاصة أن أبا الطيب لم يتهم بالحاد ولا زندقة إذا استثنيا ما يحكى عن تنبئه، وقد علم القارئ رأيي فيه. وكان ابن القارح مولعاً يذكر الزندقة، والإكثار من تهمته في رسالته ليتبين عقيدة المعري.

وبعد، فهل النظر في ديوان الشاعر يدل على زندقة أو تدين؟ في الديوان عبارات تنم عن الاستخفاف وقلة المبالاة بالدين، وقد أدرك الثعالبي بعضها من قبل؛ فقال في تعديد عيوبه:

«ومنها الإيضاح عن ضعف العقيدة ورقة الدين» ثم نقل أبياتاً منها قوله:

يترشّفن من فمي قُبَلات هنّ فيه أحلى من التوحيد

وقوله في مدح طاهر العلوي:

وأبهرُ آيات التهامي أنه أبوكم وإحدى ما لكم من مناقب

وقوله في مدح بدر بن عمار:

لو كان علمك بالإله مقسماً في الناس ما بعث الإله رسولا
أو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ قرآن والتوراة والإنجيلا

هذا بعض ما أخذه الثعالبي عليه. ورواية البيت الأول: «هنّ فيه حلاوة

التوحيد»، والبيت الثاني: «وأجدي ما لكم من مناقب»- لا تدفع كلام

الثعالبي، وأنا أزيد على ما ذكره الثعالبي قوله في مدح بدر أيضاً:

أمسى الذي أمسى بريك كافراً من غيرنا، معنا بفضلك مؤمناً

وقوله لسيف الدولة حينما أسقطت الريح خيمته:

فما اعتمد الله تقويـضها ولكن أشار بما تفعل
وعرف أنك من همـه وأنتك في نصره ترفل

وتفسير أبي الطيب الهم بالإرادة لا يقوم بعذره.

مثل هذه الأبيات تدل على الغلو في المدح، وقلة المبالاة. وتفسيرها بالغلظة والجرأة كالعبارات التي خاطب بها الممدوحين وأخذه عليها النقاد- أولى من تفسيرها بالزندقة. فاستيعاب الديوان قراءةً يبين أن الرجل كان شاعراً من شعراء المسلمين ينم كلامه عن المشاركة في العقائد الإسلامية في غير عناية بالنظر في الدين نظر أبي العلاء وأشباهه.

وانظر هذه الأبيات التي أثبتها هنا على ترتيب التاريخ. يقول وهو

يصف مهراً له:

أني كَبَتَ كُلَّ حاسِدٍ منافقٍ أنت لنا وكلنا للخالق

وقال لسيف الدولة:

ولولا قدرة الخلاق قلنا أعمداً كان خلقك أم وفاقا

فمن كان يُرضى اللؤم والكفر ملكه فهذا الذي يُرضى المكارم والريا

ويقول في مدح سيف الدولة وحربه الروم:

خضعت لمنصلك المناصلُ عنوة وأذل ديئُك سائر الأديان

وعلى الدروب وفي الرجوع غضاضة والسير ممتنع من الإمكان

والطرق ضيقة المسالك بالقنا والكفر مجتمع على الإيمان

ومهدبُ أمر المنايا فيهم فأطعنه في طاعة الرحمن

فهنالك النضر معطيكه وأرضاه سعيك في الأجل

ألهي الممالك عن فخر قفلت به شربُ المدامة والأوتار والنعيم

مقلداً فوق شكر الله ذا شطب لا تُستدام بأمضى منهما النعيم

فأنت حسام الملك والله ضارب وأنت لواء الدين والله عاقد

يُذم لمهجتي ربي وسيفي إذا احتاج الوحيد إلى الذمام

سقت إليهم مناياهم ومنفعة الغوث قبل العطب

فخَرُّوا لخالقهم سَجْدًا وَلَوْلَمْ تُعِثْ سَجَدُوا لِلضُّلْبِ
أَرَى الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ إِمَّا لِعَجْزٍ وَإِمَّا رَهَبِ
وَأَنْتَ مَعَ اللَّهِ فِي جَانِبِ قَلِيلُ الرِّقَادِ كَثِيرُ التَّعَبِ
كَأَنَّكَ وَحْدَكَ وَحْدَتَهُ وَدَانَ الْبَرِيَّةَ بِبَابِنِ وَأَبِ

مثلما أحدث النبوة في العا لم والبعث حين شاع فساده
فهذه الأبيات وأمثالها تحدث عن رجل مسلم إذا حدثت الأبيات
الأولى عن رجل مغال جريء على الدين.

١١- هل كان أبو الطيب قرمطيًا؟

يقول بلاشير في دائرة المعارف الإسلامية: «لم يكن المتنبى قرمطيًا،
ولكنه لقّن آراء القرامطة التي لقيت بين الأعراب آذانًا صاغية، وقد أشار
في شعره إلى قتل أبي طاهر القرمطي الحجاج في الحرم».

وقد سمعت أن المستشرق مسّنيون ألقى في مؤتمر المستشرقين الأخير
في رومية بحثًا ادعى فيه أن أبا الطيب كان قرمطيًا. ورأيت بعض أدبائنا
يميل إلى هذا الرأي.

والأبيات التي أشار إليها بلاشير والتي يحتج بها غيره هي قول الشاعر:
لَأَتْرَكَنَّ وَجْهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً وَالْحَرْبَ أَقْوَمَ مِنْ سَاقٍ عَلَى قَدَمِ
بِكُلِّ مَنْصَلَةٍ مَا زَالَ مُتَظَرِّي حَتَّى أَدْلْتُ لَهُ مِنْ دَوْلَةِ الْخَدَمِ
شَيْخٌ يَرَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ نَافِلَةً وَيَسْتَحِلُّ دَمَ الْحِجَاكِ فِي الْحَرَمِ

وقد قُدمت الكلام على هذه الأبيات في صفحة ٤٢.

وأنا أبين فيما يلي ما يدل عليه ديوان الشاعر من نظره إلى القرامطة، ثم إلى الشيعة العلويين.

فأما القرامطة فقد لقيت منهم الكوفة وأهلها مصائب، وأخذ الشاعر نصيبه منها. فما أحسبه مال إليهم ولا سلك طريقته، وأقل ما في الأمر أنها دعوى يُعوزها الدليل. ثم مدَّحه سيف الدولة بقتل أبيه القرامطة لا يدل على أن في نفسه ميلاً إليهم. قال:

القائم الملك الهادي الذي شهدت قيامه وهُداه العرب والعجم
ابن المعفر في نجد فوارسها بسيفه وله كوفان والحرم

قال الواحدي: يعني حرب أبي الهيجاء القرامطة وولايته طريق مكة. وتأمل في قوله: القائم الملك الهادي ... الخ فلا يبعد أن يكون تعريضاً بمن يصدقون بالمهدي.

وأما التشيع فربما يفهم من قصيدته التي مدح بها أبا طاهر العلوي في الرملة. قال فيها:

وأبهر آيات التهامي أنه أبوكم وأجدي ما لكم من مناقب
هو ابن رسول الله وابن وصيه وشبههما. شبهت بعد التجارب

فتسمية علي وصيًا اتباع لأراء الشيعة.

وأشار إليه طاهر العلوي بمسك في حضرة ابن طُغج فقال:
الطيب مما غيبت عنه كفى بقرب الأمير طيباً

يبنى به ربنا المعالي كما بكم يغفر الذنوبا

ولكن إن لم يكن بد من الاحتجاج بما يجري على لسان الشاعر أثناء المدح فقد خالف الشيعة إذ قال بعد البيت الأول:

إذا لم تكن نفس النسيب كأصله فماذا الذي تغنى كرام المناسب
وما قُربت أشباه قوم أباعد ولا بُغدت أشباه قوم أقارب

فهو يقول إن النسب وحده لا يرفع إنساناً إذا لم يرفعه فعله وهذا لا يساير عقائد الشيعة في ذلك العصر.

وأبين من هذا قوله في مدح ابن العميد وهو وزير دولة شيعية:

فلن يكن المهدي من بان هديه فهذا. وإلا فالهدي ذا فما المهدي؟
يعلننا هذا الزمان بهذا الوعد ويخدع عما في يديه من النقد
هل الخير شيء ليس بالخير غائب أم الرشده شيء غائب ليس بالرشده

هل هذا قول يجيزه لنفسه رجل يرى رأي القرامطة في الإمامة؟ أو هو استخفاف بالمهدي ومن ينتظرونه؟

ثم مدح ابن حمدان بأنه سيف الدولة العباسية وتكرار هذا وتسميتها الدولة الهاشمية ودولة الخلافة وخيرة الدول؛ وتسمية الخلفاء العباسيين أئمة قریش - كل هؤلاء برهان على أنه ما كان يتحلل إلا نحلة جمهور المسلمين في عصره.

يقول في مدح ابن عمار:

حسام لابن رائق المفدى حسام المتقي أيام صالا

ويقول في سيف الدولة:

لقد سلَّ سيفُ الدولة المجدُ مُعلِّماً فلا المجدُ مخفيه ولا الضربُ ثالمه
على عاتق المَلِكِ الأغرَ نجاده وفي يد جَبَّارِ السموات قائمه

وشركتُ دولةَ هاشم في سيفها وشققتُ خيس الملك عن رثاله

لقد رأت كل عين منك مآلئها وجردت خير سيف خيرة الدول

إن الخليفة لم يسمك سيفه حتى بلاك فكنت عين الصارم

إمام للأئمة من قریش إلى من يتقون له شقاقا

لقد رفع الله من دولة لها منك يا سيفها مُنْضِل

لأمر أعدته الخلافة للعدى وسمته دون العالم الصارم العضبا

١٢ - العصبية العربية:

أبو الطيب شاعر عربي النسب، عربي النشأة، عربي الطباع. فهو يمثل العربية تمثيلاً صادقاً في خشوته، ونفوره من الترف، وترفعه عن الدنيا، وإبائه وطموحه وبعد همته، وشجاعته وإقدامه وصبره، ودُرْبته على السفر، وبصره بالسبل والبلاد، وهلمَّ جَرّاً. ولو أن عنترة بن شداد وعمرو بن

كلثوم والحرث بن حنزة عاشوا في القرن الرابع الهجري حيث عاش أبو الطيب لأشبهوه في كثير من قوله وفعله.

ذلك تمثيله العربية في أخلاقه ونزعاته وسيرته. وأما تحدّثه بالعصية العربية وإشادته بالعرب وفخره بهم فسأجمل القول فيها بعد هذه المقدمة:

بعض الكتاب يحاولون أن يفسروا تاريخنا بنزعات العصر الحاضر وبما يحسّون من عصبية. ولا بدّ لهم أن يتذكروا أن الأمم الإسلامية في القرن الرابع كانت تعيش في أخوة الإسلام والتاريخ والأدب، وكانت عصبياتها لا تغطّي على هذه الأخوة. وكانت الفوارق الوطنية والقومية والسياسية تخالف ما نراه في عصرنا هذا.

فأبو الطيب حينما رحل من العراق إلى الشام فمصر فالعراق ففارس فالعراق لم يُسأل في طريقه عن موطنه، ولم يكلف حمل جواز السفر، ولا تسجيل اسمه في سجلات الشرطة كلما فارق مملكة إلى أخرى. وقد أقام في الشام سنين يمدح أناساً جلّهم عرب، وغير العربي منهم كالعربي في ثقافته ولغته ومعيشتة. ورحل إلى مصر فمدح رجلاً أسود ولكنه مسلم يتكلم العربية ويعرف آدابها ولا يعرف لنفسه لغة أخرى ولا أمة غير الأمة العربية.

ولما رحل إلى فارس لقي ابن العميد، وهو علّم من أعلام الأدب العربي، ثم سار إلى عضد الدولة فإذا ملّكٌ عربيّ اللسان ينظم الشعر

العربي ويحب الأدب العربي ويصل شعراء العربية ولا يسالي باللغة الفارسية وآدابها وشعرائها.

فإننا انتظرنا أن يكون أبو الطيب في هذه الجماعات مثلاً لعصبياتنا ونزعاتنا في العصر الحاضر فقد أردنا مخالفة السنن وتحريف التاريخ. قال أحد الكتاب: إن أبا الطيب كان قد وافق سيف الدولة على خطة يمحوان بها سلطان العجم من البلاد العربية، وذهب في هذا مذهباً مغرقاً في الوهم^(١). وقال كاتب آخر إن أبا الطيب كان في شعره داعية للأعاجم مُشيداً بمجدهم وحضارتهم، معظمًا رجالهم بمدائحه ... الخ^(٢). وإذا كان مرجع الرأي الخيال لا الحقيقة، ودليله الوهم لا كلام الشاعر وتاريخه، اختلف القائلان هذا الاختلاف في أمر واحد بين.

ثم نظر فيما يوحيه كلام الشاعر وسيرته.

فأما مدحه الروزباري وابن طغج وكافور ودلير بن لشكروز وعضد الدولة فلا عار فيه، ولا إخلال بعزة الشاعر العربية إذا تذكرنا المقدمة التي أسلفتها. فلم يبق إلا النظر في كلام الشاعر لتبين ما فيه من عصبية أو غيرها:

فأما أدلة العربية فثلاثة أضرب:

(١) مجلة المقتطف: عدد المتنبى.

(٢) مجلة المغرب الجديد: عدد المتنبى.

الأول: ذكر فيه العرب والعجم وأعرب عن عصبية لقومه.

والثاني: لم يقيس فيه العرب بغيرهم، ولكنه دلّ فيه على اعتزاز بالعربية وافتخار بها.

والثالث: عطفه على القبائل العربية وحضه سيف الدولة على برّهم ورعاية الأخوة العربية فيما يشجر بينه وبينهم من خلال.

فأما الأول فقوله:

أحذّ شيء عهداً بها القدم	أحقّ عاف بدمعك الهمم
تفلح غزب ملوكها عجم	وإنما الناس بالملوك وما
ثرغى بعبد كأنها غنم	لا أدب عندهم ولا حسب
وكان يرى بظفره القلم	يستخشن الخز حين يلمسه

وقوله في ذمّ ابن كَيْغَلْغ موازناً بينه وبين أبي العشائر الحمداني:
أفعال من تلد الكرام كريمة وفعال من تلد الأعاجم أعجم

وقوله في رثاء يَمَأك التركي أحد جند سيف الدولة:
وإن الذي أمست نزار عبيده غني عن استعباده لغريب

ومن ذلك استيحاشه في فارس من فقد اللغة العربية، والوجه العربي، واليد العربية، وحنينه إلى دمشق وضيافتها وحمص وخناصرة كما تقدم^(١).

وأما الضرب الثاني؛ وهو اعتزازه بالعروبة وافتخاره، فيتجلى في مدائح سيف الدولة حيث يشيد بعربيته، ويعدّها من مفاخره كقوله:

تُهابُ سُيُوفُ الهند وهي حداثد فكيف إذا كانت نزاريةً عُزبا

تَحِيرُ في سيف ربيعةً أصله وطابعه الرحمن، والمجدُّ صاقل
إذا العربُ العرباء رازت نفوسها فأنت فتاها والمليك الخلاجل
أطاعتك في أرواحها وتصرفت بأمرك والتفت عليك القبائل

رفعت بك العربُ العمادَ وصيرت قِمَمَ الملوكِ مَواقِدَ النيران

تَشْرَفُ عَدنانٌ به لا ربيعة وتفتخر الدنيا به لا العواصم

والثالث: وهو عطفه على القبائل العربية، يتبين في قصيدتيه اللتين ذكر فيهما حرب سيف الدولة وقبائل العرب فاجتهد في عطف الأمير عليهم وذكره بعربيتهم وقرباتهم، وقد قدمت أدلة هذا في صفحة ٨٦ وما بعدها.

وأما ما يخالف هذه العصبية أو يُؤوهم أنه يخالفها فبيانها فيما يلي:

(أ) مدحه على بن صالح الروزباري الكاتب بقوله:

فارسيّ له من المجد تاج كان من جوهر على أبرواز
نفسه فوق كلّ أصل شريف ولو أتى له إلى الشمس عاز
ويأبائك الكرام التأسّي والتسلى عما مضى والتعازي
تركوا الأرض بعدما ذللوها ومشت تحتهم بلا مهماز
وأطاعتهم الجيوش وهيبوا فكلام الورى لهم كالنُحاز

ولست أرى في هذا المدح إخلالاً بالعصبية فمدح جماعة ليس تحقيراً
 لأخرى؛ لا سيما من شاعر له من وراء المدح مأرب. وكأن الشاعر ضاق
 عليه مجال القول في هذا الممدوح فحلّاه بشيء من مجد الفرس القديم.
 ولو أنه أراد تعظيم الفرس لا تسع له المجال في قصائد عضد الدولة وهو
 لم يذكر فيها كلمة عن الفرس وملوكهم. وقد مدح أبو تمام والبحري غير
 العرب، وقال البحري في القصيدة السنية التي وصف فيها إيوان كسرى:
 ومَسَاعٍ لَوْلَا المحَابَاةُ مَنَى لَمْ تُطْقَهَا مَسْعَاةُ عَنَسٍ وَعَبَسٍ
 ثم ذكر فضل الفرس على اليمن إذ أعانوا على إخراج الحبش. ولم تعد
 مدائح أبي تمام والبحري مُزرية بالعصبية فيهما.

(ب) وقال أبو الطيب في كافور:

ويغنيك عما ينسب الناس أنه إليك تناهي المكرمات وتُنسب
 وأبي قيل يستحق قدره معدّ بن عدنان فداك وتعزّب

أبلى الأجلة مهري عند غيركم وبذل العذر بالفسطاط والرسن
 عند الهمام أبي المسك الذي غرقت في بحرهِ مضرُ الحمراء واليمن

وفي البيتين الأولين موضع للمؤاخذه لا يشفع فيه مقام المدح،
 واقتضاء الصنعة إذا شفعنا في مثل قوله:

ومن قول سام ليوراك لنسله: فدى ابن أخي نسلي ونفسي مالبا

(ج) وقال في مدح ابن العميد:

أرايت همة نساقتي في ناقة نقلت بدأ سرخاً وخفأ مجمرًا

تركت دُخان الرّمث في أوطانها طلباً لقوم يُوقدون العنبراً

من مُبلغ الأعراب أنى بعدهم لاقيت رسطاليس والإسكندرا
ولقيت بطليموس دارس كُتبه متملكاً متبدياً متحضراً

والظاهر أن الشاعر يصف انتقاله من البداوة إلى الحضارة فقد ذكر دُخان الرّمث. وهو من شجر البادية، وذكر الأعراب. ثم قابل هذا بالعنبر وأرسطاليس والإسكندر. فكلام الشاعر عن الأعراب لا العرب. فليس فيه قياس أمة بأمة بل قياس حال بحال: بداوة وجهالة بحضارة وعلم. ولكني مع هذا لا أبرئ الشاعر من أنه وقف موقف التهمة. وكان خيراً له ألا يقول هذا.

هذا ما يمرّ به القارئ أثناء قراءة الديوان من العصبية والخروج على العصبية. والحق أن أبا الطيب لم يمثل العرب بأقواله كما مثلهم بأفعاله. إنما كان أبو الطيب شاعر العرب بما مثلهم في عيشه وخلقه وفعله وقوله كما قدمت في أول الفصل.

ولا يقاس أبو الطيب في الإشادة بالعرب والفخر بهم والدفع عنهم، ودعوتهم إلى استعادة مجدهم - بشاعر العرب الحق الذي فاض شعره في القرن الخامس الهجري بالعزة العربية، والعصبية للعرب والإشادة بمجدهم. وذلكم الشاعر الأمويّ النابغ الأبيوردي.

الحق أن أبا الطيب لا يقاس بالأبيوردي في هذا الشأن، بل لا يستحق أن يذكر معه في هذا الصدد. ولا يتسع للتمثيل بروائع الأبيوردي ولكن ينبغي أن نذكر أن أبا الطيب عاش في بلاد العرب، والأبيوردي عاش في ديار العجم؛ فكان كل ما حوله يثير عصبية، كما فعل المتنبي حين ذهب إلى بلاد العجم^(١).

هذا ولأبي الطيب، غير ما بينت، آراء مثورة ترجع إلى أمور شتى لا تبين عن مذهب مكين في النفس، ويستطاع تعدادها هنا.

(١) ص ١٧٤ وما بعدها.